﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [النحل: 101]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مـــآلُ ولايـــةِ الشَّيطانِ إلقاءُ الأباطيل

لَمّا ذكَر اللّهُ تعالى إنزالَ الكِتابِ تِبيانًا لكُلِّ شَيءٍ، وأمَرَ بالاستعاذةِ عندَ قراءتِه؛ ذكَرَ تعالى نَتيجةَ ولايةِ الشَّيطانِ لأوليائِه المُشرِكينَ، وما يُلقيه إليهم مِن الأباطيلِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَّلۡنَآ﴾: أصلُ (بدل): واحِدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُهُ، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ إذا غَيَّرتَهُ وإنْ لَم تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ؛ وهو: تغيير الصّورة إلى صورةٍ أُخرى، والجَوْهَرةُ بعينِها، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]؛ وأبْدَلْتُهُ: إذا أتَيْتُ لَهُ بِبَدَلٍ؛ وهو: تنحيَةُ الجَوْهَرة، واستِئْنافُ جوهرةٍ أُخرى[2]، والمقصود بالتَّبديل في الآية: جَعْلُ شَيْءٍ بَدَلًا عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، والمُرادُ به: مُطلَقُ التَّغايُرِ بَيْنَ الأغراضِ والمَقاماتِ، أو التَّغايُرُ في المَعاني واختلافُها باختلافِ المَقاصِدِ والمَقاماتِ مع وُضوحِ الجَمعِ بَين محامِلِها[3].

2) ﴿مُفۡتَرِۭ﴾: أصلُ الفَرْيِ: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثرُ[4]، والفِرْيَةُ الكَذِبُ، فرَى كَذِبًا فرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 517.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بدل).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 281.
(4) الرّاغب، المفردات: (فرى).

[يونس: 38]؛ أي: اخْتَلَقَهُ[1]، والمُفْتَري: الكاذِبُ، والمُفْتَرَى: المَكْذوبُ، قال السِّجستانيُّ: "الافتراء: العَظيم من الكَذِب، يُقال لمن عمل عملًا، فبالغ فيهِ: إنَّه لَيَفري الفَري، يَعْني: لَيَقطع الأمرَ العجيبَ"[2]، والمقصود بالافتراء في الآية: الاختلاق، وهو ابتكارُ الأخبارِ الكاذبةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّرائعُ توضَع مُشاكَلةً للزَّمانِ والمكانِ والأحوالِ المُلابَسةِ لها، وقد يطرأُ ما يُغيِّرُها، ويستَدْعي وضعَ تشريعٍ آخرَ يكون أصلحَ للأحوال المُفاجِئة

يقُصُّ الحقُّ تعالى بعضَ الأقاويل الَّتي قالها المُشركون عن النَّبيِّ ﷺ وعن القرآن الكريم، وردَّ عليها بما يُخرِس ألْسِنَتَهم، فقال تعالى: وإذا نَسَخْنا آيةً مِن القُرآنِ بآيةٍ أُخرَى سِواها، خيرٍ منها أو مثلِها - واللهُ أعلَمُ بما يُنَزِّلُ في كتابِه، ويَنسَخُه بما يَصلُحُ لِعبادِه - قال المُشرِكونَ: إنَّما أنت - يا محمد ﷺ - كاذِبٌ تختَلِقُ على اللهِ الباطِلَ، ليس الأمرُ كما قال هؤلاء المُشرِكونَ، ولكِنَّ حقيقةَ الأمرِ هي أنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ حَقيقةَ القُرآنِ وصِحَّتَه، وأنَّه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ: ناسِخُه ومَنسوخُه، وأنَّ ما فيه مِن نَسخٍ هو لحِكَمٍ إلهيَّةٍ بالغةٍ، كمُراعاةِ مَصلحةِ عِبادِه، وإذا كانوا جُهّالًا لا يَعلَمونَ ذلك؛ فقَدْحُهم وذَمُّهم لا عِبرةَ به[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو:

العطفُ على مقدَّرٍ

الواو في صَدْر الآية عاطفةٌ، حيث عُطِفَ عَلى مُقَدَّر دَلَّ عَلَيْهِ الكَلامُ ما أنْتَجَهُ تَسَلُّطُ الشَّيْطانِ عَلَيْهِم، فقالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾؛ أيْ: بِعَظَمَتِنا، بِالنَّسْخِ[4].

(1) ابن سِيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(2) السِّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 103.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 362، والعليميُّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 4/ 55، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 3/ 232، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 449.
(4) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 253.

وَجْهُ التَّعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن):

تحقّق هذا التّبديلِ مراعاة لأحوال النّاس ومصالحهم

عُبِّر بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾؛ للدَّلالة على تَحَقُّقِ هذا التَّبديلِ مراعاةً لأحوال النّاسِ ومصالحِهم، وهذا ما أكَّده التَّعبير بالماضي ﴿بَدَّلْنَآ﴾، "قالَ ابْنُ عَبّاسٍ ﷺ: كانَ إذا نَزَلَتْ آيَةٌ فيها شِدَّةٌ، ثُمَّ نَزَلَتْ آيَةٌ ألْيَنُ مِنها؛ تَقولُ كُفّارُ قُرَيْشٍ: واللّه ما مُحَمَّدٌ إلّا يَسْخَرُ بِأصْحابِهِ، اليَوْمَ يَأْمُرُ بِأمرٍ، وغَدًا يَنْهى عَنْهُ، وإنَّهُ لا يَقولُ هَذِهِ الأشْياءَ إلّا مِن عِنْدِ نَفْسِهِ، فأنْزَلَ اللّه تَعالى قَوْلَهُ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾"[1].

إيثارُ لَفْظِ التَّبديلِ دونَ النَّسخِ والتَّعويض:

تَبديلُ الآية مكانَ الآية هو النَّسْخُ، واللّه تعالى ينْسَخُ الشَّرائعَ بالشَّرائعِ؛ لأنَّها مصالح

التَّبديلُ رَفْعُ الشَّيء مع وضْع غيرِه مكانَه، وتَبْديلُ الآيةِ رَفْعُها بآيةٍ أُخرى مكانَها، وهو نَسْخُها بآيةٍ أخرى، وعليه أوثر لَفْظُ التَّبديلِ دون النَّسخِ، والتَّعويض؛ لِتَضَمُّن التَّبديلِ معنى الوَضْعِ، والمعنى: إذا وضَعنا آيةً مكان آيةٍ تبدُّلًا[2].

واللّه تعالى ينْسَخُ الشَّرائعَ بالشَّرائعِ؛ "لأنَّها مصالِحُ، وما كان مصلحةً أمسِ يجوز أن يكون مفسدةً اليومَ، وخِلافُه مصلحة، واللّه تعالى عالم بالمَصالحِ والمَفاسدِ، فيُثْبِت ما يشاء، وينْسَخ ما يشاء بحكمته، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ﴾، وجدوا مَدخلًا للطَّعْن، فطعنوا، وذلك لجهلِهم، وبُعْدهم عن العِلْم بالنّاسخ والمنسوخ، وكانوا يقولون: إنَّ محمدًا يسْخَر من أصحابه: يأمُرهم اليومَ بأمرٍ، وينهاهم عنه غدًا، فيأتيهم بِما هو أهْوَنُ، ولقدِ افتروا، فقد كان ينْسَخ الأشقَّ بالأهْوَنِ، والأهْوَنَ بالأشقِّ، والأهْوَنَ بالأهْوَنِ، والأشقَّ بالأشقِّ؛ لأنَّ الغرضَ المصلحةُ، لا الهوانُ والمشقَّة، فإن قلت: هل في ذِكْرِ تبديلِ الآيةِ بالآية دليلٌ على أنَّ القرآن

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 20/ 118.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغَيب، حاشية على تفسير الكشّاف: 9/ 193.

إنَّما يُنْسَخُ بمثله، ولا يصِحُّ بغيرِه من السُّنَّة والإجماعِ والقياسِ؟ قلت: فيه أنَّ قرآنًا يُنْسَخ بمثلِه، وليس فيه نَفْي نَسْخِه بغيره، على أن السُّنَّةَ المَكشوفَة المُتواترة مثل القرآن في إيجابِ العلم، فنَسْخُه بها كنَسْخِه بمثْلِه، وأمّا الإجماعُ والقياسُ والسُّنَّة غَيْرُ المَقطوعِ بها؛ فلا يصِحُّ نَسْخُ القرآنِ بها"[1].

وزاد ابن عاشور: "فالتَّبْديلُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿بَدَّلْنَآ﴾ هو التَّعْويضُ بِبَدَلٍ، أيْ: عِوَضٍ، والتَّعْويضُ لا يَقْتَضي إبْطالَ المُعَوَّضِ بِفَتْحِ الواوِ، بَلْ يَقْتَضي أنْ يَجْعَلَ شَيْئًا عِوَضًا عَنْ شَيْءٍ، وقَدْ يَبْدو لِلسّامِعِ أنَّ مِثْلَ لَفْظِ المُعَوَّضِ بِفَتْحِ الواوِ جُعِلَ عِوَضًا عَنْ مِثْلِ لَفْظِ العِوَضِ بِالكَسْرِ في آياتٍ مُخْتَلِفَةٍ بِاخْتِلافِ الأغْراضِ مِن تَبْشيرٍ وإنْذارٍ، أوْ تَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ، أوْ إجْمالٍ وبَيانٍ، فيَجْعَلُهُ الطّاعِنونَ اضْطِرابًا؛ لِأنَّ مِثْلَهُ قَدْ كانَ بُدِّلَ، ولا يَتَأمَّلونَ في اخْتِلافِ الأغْراضِ، وقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِن هَذا المَعْنى عِنْدَ قَوْلِه تَعالى: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15] في سورَةِ يونُسَ"[2].

نُكْتةُ إضافةِ فِعْلِ التَّبديلِ إلى ضميرِ التَّعْظيم:

في الإسنادِ تَرْبِيةٌ للمَهابة

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ عنايةٌ بشأنِ فِعْلِ الإبدالِ - فضلًا عن المُبدَّل - بإضافتِه إلى ضمير التَّعظيم، وتشريفٌ له بوصفِه مُنزَّلًا من عندِ اللهِ تعالى.

سِرُّ تنكيرِ لَفْظ ﴿ءَايَةً﴾ في المَوْضِعيْن:

تفخيم النّاسخ والمَنسوخ

وتنكيرُ لَفْظ ﴿ءَايَةً﴾ في المَوضعيْن للتَّفخيم، تفخيمِ الآية النّاسِخة والمَنسوخة؛ لأنَّ كِلْتَيْهما مِن عِنْد اللهِ تعالى.

إيثارُ لفظِ ﴿مَّكَانَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّة المكانيَّة بأن

(1) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 3/ 473.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 281.

المكانُ هنا مجازيٌّ، وهو حالةُ الكلامِ والخطابِ

تأتي آيةٌ في الدَّعوة والخطابِ في مكان آيةٍ أُخرى أَتَتْ في مثل تلك الدعوةِ، فالمكانُ هنا مكانٌ مَجازيٌّ، وهو حالة الكلامِ والخطابِ، كما يُسمَّى ذلك مقامًا، فيُقال: هذا مقامُ الغضبِ، فلا تأتِ فيه بالمَزْحِ، وليس المرادُ مكانَها من ألواحِ المصحفِ ولا بإبْدالِها مَحْوَها منه[1].

فائدة جملة الاعتراض:

التَّبديل ليس مِن عَمَلِ الرَّسولِ ﷺ بل هو مِن اللهِ أنزلَه بعِلمِه

جاءت جملةُ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراضيَّةً بين الشَّرطِ وجَوابِه، لِتَوبيخِ الكفّارِ على قولِهم، والتَّنبيهِ على فسادِ سنَدِهم[2]؛ وتعجيلًا لبيان أنَّ تبديلَ آية مكان آية، أو رفْعَ حكم وتشريعَ غيرِه: هو من العلم الشّامل والحِكمة البالغة، وليس من بابِ التناقض ولا التصادم بين النصوص؛ وإنّما اللّهُ العليم الحكيم يعلم أزلًا ماذا ينزِّل، ومتى ينزِّله، علمًا منه سبحانه بالمصلحة الراجحة، المقترِنة بكلٍّ من الزَّمنَين، السابقِ للتنزيل واللاحقِ له، ويجوز أن تكون الجملةُ حالًا، والواو رابطة، والحال مُؤَكَّدةٌ؛ لأنَّ كَوْنَه حالًا مُؤَوَّلٌ بِكَوْنه مقرونًا بِعِلْمه تعالى[3].

وأشار ابن عادل الدِّمشقيُّ إلى الوَجْهيْن بقوله: "في هذه الجملة وجْهان: أظْهَرُهما: أنَّها اعتراضٌ بين الشَّرط وجوابه، والثّاني: أنَّها حاليَّة؛ فعلى الأوَّل يكون المعنى: واللّه أعلم بما يُنَزِّل من النّاسخ والمَنسوخِ، والتَّغليظِ والتَّخفيفِ، أيْ: هو أعلم بجميع ذلك في مصالحِ العبادِ، وهذا توْبيخٌ للكفّار على قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ﴾، أيْ: إذا كان هو أعلمُ بما ينزِّل؛ فما بالُهم ينْسِبون محمَّدًا إلى الافتراء؛ لِأجلِ التَّبديل والنَّسْخ"[4].

ودعا ابن القيِّم إلى تأمُّلِ حُسْنِ الاعتراضِ وجزالَتِه في الآية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 283.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 382.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 156.

لإفادته أمورًا: "منها: الجوابُ عن سؤالِ سائلٍ: ما حِكْمَةُ هذا التَّبديلِ، وما فائدتُه؟ ومنها: أنَّ الَّذي بُدِّلَ، وأُتيَ بغيرِه مُنَزَّلٌ، مُحكَمٌ نزولُه قبلَ الإخبارِ بقَولِهم، ومنها: أنَّ مَصدَرَ الأمرَيْنِ صادِرٌ عن عِلْمِه ﷻ، وأنَّ كُلًّا منهما مُنَزَّلٌ؛ فيَجِبُ التَّسليمُ والإيمانُ بالأوَّلِ والثّاني، ومنها: أنَّ هذا التَّبديلَ ليس مِن عَمَلِ الرَّسولِ ﷺ، بلْ هو مِن اللهِ؛ أنزلَه بعِلمِه، وأبدلَ آيةً مكانَ آيةٍ بعِلمِه؛ وليس منك أيُّها الرسولُ"[1].

بلاغةُ الالتفاتِ مِن الإضْمار إلى الإظهار:

إضْفاءُ المَهابةِ على الخبر، وتقويةٌ لاستقلال جملة الاعتراض

التفاتُ الخطابِ مِن الإضمار في ﴿بَدَّلْنَآ﴾ إلى الإظهار في ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، بالتَّصريح باسمه الأعظم الَّذي يدلُّ على الإحاطة الشّاملة: مناسبٌ لِعِظَم شأنِ الإنزال، وقداسةِ المُنَزَّل[2]، مع ما فيه من تربية المَهابةِ في النفوس على الخَبَر، وفيه أيضًا تحقيقٌ لمعنى الاعتراضِ[3]، ولتكونَ الجملةُ مستقلةً بمعناها، تُضرَب مثلًا حيثُما يتأتّى استعمالُها.

دلالةُ صيغة أفعل في التَّعبير عن عِلْم الله:

اللهُ أعلم بالنّاسخ والمنسوخ

أصْلُ العِلْم: إدراك الشَّيءِ على حقيقته، وهو معْرفةُ الشَّيءِ على ما هو عليه، والعِلْمُ نوعان: نظريٌّ وعَمَليٌّ، فالنَّظَريُّ: ما إذا عُلِمَ، فقدْ كَمُلَ، نَحْو العِلْمِ بموجودات العالَم، والعَمَليُّ: ما لا يَتِمُّ

(1) وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، أي: من ناسخٍ قَضَت الحكمَة أن يَتَبَدَّلَ المَنسوخُ الأوَّلُ به، وذَهَبَ قَومٌ إلى أنَّ المَعنى تَبديلُ آيَةٍ من آيات الأنبياء المُتَقَدِّمينَ، كآيَة موسى وعيسى وغَيرهما منَ الآيات الكَونيَّة الآفاقيَّة، بآيَةٍ أُخرى نَفسيَّةٍ علميَّةٍ، وهي كَونُ المُنَزَّل هُدًى ورَحمَةً وبشارَةً يُدركُها العَقلُ، إذا تَنَبَّهَ لَها، وجَرى عَلى نظامه الفطريّ، وذَلكَ لاستعداد الإنسان وقتَئذٍ، لأن يُخاطب عَقلَهُ، ويَستَصرخ فمَهُ ولُبَّهُ، فلَم يُؤتَ من قبَل الخَوارق الكَونيَّة، ويُدهَش بها، كَما كانَ لِمَن سَلَفَ، فبُدِّلَت تلكَ بآيَةٍ هو كتابُ العلم والهُدى من نَبيٍ أُمِّيٍّ لَم يَقرَأ، ولَم يَكتُب، والمَقصودُ أنَّهُ تَعالى، لَمّا رَحمَ العالَمينَ، وجَعَلَ القُرآنَ مَكانَ ما تَقَدَّمَ، نَسَبوا الموحى إلَيه به إلى الافتراء، رَدًّا للحَقّ، وعنادًا للهُدى، وتَوَلّيًا للشَّيطان، وتَعَبُّدًا لوَسوَسَته، وما ذاك إلّا لجَهلهم المُتَناهي، كَما قالَ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، واعْتِراضُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾لِتَوْبِيخ الكَفَرَة والتَّنْبِيه عَلى فسادِ رَأْيِهِم، يُنظر: ابن القَيِّم، التِّبيان في أقسام القرآن لابن القيِّم، ص: 224، وابن عُثَيْمين، شَرْح العقيدة الواسطية: 1/ 441.

(2) البقاعيُّ، نظم الدرر: 11/ 254.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 141، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 231.

إلّا بأن يعملَ كالعِلْم بالعبادات[1]، والتَّعبير بصيغة أفعل ﴿أَعْلَمُ﴾ عن عِلْم الله إشارةٌ إلى مُطْلَق سَعةِ عِلْمه تعالى الَّتي لا تضاهيها سَعةٌ، وإلى عظيم حِكْمته ﷻ، وإلى التَّفاوت غيرِ المحدودِ بين العِلْم الإلهيِّ اللَّدُنّيِّ، والعِلْم البَشَريِّ القاصر، والمعنى: والله أعلم بالنّاسخ والمنسوخ فيكْفيك عِلْمُه، فلا يَحْزُنْك ما قالوه[2]، وفيه تَسْرِيَةٌ عن النَّبيِّ ﷺ، وتسْلِيَةٌ له.

معنى الباء، وإيثارُ الموصول (ما):

عموم عِلْمه سبحانه بِكلِّ ما يُنزِّله، وما يُبَدِّله

والباء للمُلابَسَة، أي: عِلْمُه تعالى مُلْتبِسٌ بِما يُنَزِّله، وأوثر التَّعبيرُ بـ(ما) الموْصولِيَّةِ؛ ليدُلَّ على عموم عِلْمِه سبحانه بِكلِّ ما يُنزِّله، وما يُبَدِّله.

سِرُّ التَّعبير بفعل التَّنزيل مضارعًا:

اللهُ أعْلَمُ بِالمَصْلَحَةِ فِيهِ يُنَزِّلُهُ ناسِخًا ويَرْفَعُهُ مَنسوخًا

التَّعبيرُ بفعل التَّنزيلِ مُضارعًا فيه دلالةٌ على تَجَدُّد التَّغيير والتَّبديل بِما فيه مِن ناسخٍ ومنسوخٍ واستمرارِه طولَ فتْرَةِ نزول القرآن؛ مراعاةً لأحوال النَّاسِ ومصالِحهم، والمعنى: يَعْني أعْلَمُ بِالمَصْلَحَةِ فيه، يُنَزِّلُهُ ناسِخًا، ويَرْفَعُهُ مَنسوخًا[3]، وهوَ أعْلَم بِما يُنَزِّلُ فيما يغيِّر، ويُبَدِّل، أعْلم بِما هو أصْلَح لِخَلْقِه فيما عَدَّل مِن أحكامه[4].

دلالة إضمار المُنَزَّل:

عمومُ عِلْمه سبحانه فيما يغيِّر ويُبَدِّل

إضمارُ المُنَزَّل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾؛ للإشارة إلى عموم عِلْمِه سبحانه فيما يغيِّر، ويُبَدِّل.

بيان العُدول من (والله أعلمُ بما يُبَدِّل) إلى ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾:

المُنزِّل للآيات ناسخِها ومنسوخِها اللهُ تعالى

عُبِّر بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، وليس (والله أعلمُ بما يُبَدِّل) مع أنَّ الحديث عن تبديل الآي؛ للتأكيد على أن المُبدَّل من

(1) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: باب العين: 3/ 112.
(2) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 2/ 305.
(3) الماورديُّ، النُّكَت والعُيون: 3/ 117.
(4) الثَّعلبيُّ، الكَشْف والبَيان: 6/ 43.

الآي إنَّما هو مُنَزَّلٌ بعلم اللّه تعالى حالُه حال الَّذي نُسخَ لا فرقَ بينه وبين المُبدَّل؛ فالمُنزِّل للكلِّ اللّهُ تعالى، وفي هذا دفْعٌ لافترائِهم.

وَجْه التَّعبير بفِعْل القَوْلِ ماضيًا مجموعًا:

ثبوت افترائهم وتحقُّقه

عُبِّر بفعل القولِ ماضيًا مجموعًا في قوله تعلى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ﴾؛ للإشارة إلى تَحقُّق هذا القولِ بِنِسْبته ﷺ إلى الافتراء - شاهت وجوهُهم - وصُدورِه عن المشركين ومُنْكري نُبوَّته ﷺ باعتبار الأكثريَّة، وإلى تَأبّي الأقليَّة عن الإيمان على الرَّغم من عِلمِهم بصدقه ﷺ لكِنَّهم تَمَرَّدوا، وأصَرّوا على الكفر والعناد، فأُدخلوا في زُمرة المُتَقوِّلين.

دلالة التَّعبير بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

مبالغة مُنْكري رسالة النَّبيِّ ﷺ في نِسْبَةِ الافتراءِ له

دَلَّ التَّعبير بـ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ﴾ على مبالغة مُنْكري رسالة النَّبيِّ ﷺ في نِسْبَةِ الافتراءِ له ﷺ، وبمواجَهةِ الخِطابِ بأداة القصر الَّتي تُستعمل في الأمر المَعلوم الَّذي لا يُنكره المُخاطَب، فهُم يَرَون أنَّ كونَه ﷺ مُفْتَرٍ - حاشاه - أمرٌ راسخ مؤكَّدٌ، وحقيقةٌ يقينيَّة لا تقبل الجِدالَ ولا الشَّكَّ.

فائدة الضَّمير ﴿أَنتَ﴾:

مُجازَفَة المُشركين، وسُرْعَتُهم في الحُكْمِ الجائِرِ

في إيثار الضَّمير ﴿أَنتَ﴾ إشارةٌ إلى حِرْص المشركين على مواجهة النَّبيّ ﷺ بمَزاعمهم بنسبة الافتراءِ إليه مُكافحةً، "وحِكايَةُ طَعْنِهم في النَّبي ﷺ بصيغَةِ قَصْرِ المَوْصوفِ عَلى الصِّفَةِ، فجَعَلوهُ لا صِفَةَ لَهُ إلّا الافْتِراءَ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أيْ: لَسْتَ بِمُرْسَلٍ مِنَ اللّه، وهَذا مِن مُجازَفَتِهم وسُرْعَتِهم في الحُكْم الجائِرِ، فلَم يَقْتَصِروا عَلى أنَّ تَبْديلَهُ افْتِراءٌ بَلْ جَعَلوا الرَّسولَ مَقْصورًا عَلى كَوْنِهِ مُفْتَريًا؛ لِإفادَةِ أنَّ القُرْآنَ الوارِدَ مَقْصورٌ عَلى كَوْنِهِ افْتِراءً"[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 183.

نُكْتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُفْتَرٍۚ﴾:

أرادوا ثبوتَ نسبةِ الافتراء ودوامَها

تجاوبَ التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُفْتَرٍۚ﴾ الدّالِّ على الثُّبوت والاستمرار مع القَصْر بـ﴿إِنَّمَآ﴾ والخطابِ ﴿أَنتَ﴾ على مبالغة المُشركين في نِسْبة الافتراء إليه[1]؛ بوصفها خَصلةً ثابتةً فيه، داوم عليها، واستمرَّ، ودَأبَ في أقواله وأفعاله، حاشاه وهو الصّادقُ المَصدوقُ الأمينُ ﷺ.

إيثار لفْظِ الافتراء دون غيره:

الافتراءُ الكذبُ على اختراعِ الخَبَر؛ أي: اختلاقه، فساوى الكَذِبَ في المَعْنى، ولذلك قَدْ يُطْلَقُ وحْدَه كما هُنا، وقَدْ يُطْلَقُ مُقْتَرِنًا بالكَذِب، كقَوْلِه الآتي: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: 105]؛ إرْجاعًا به إلى أصْلِ الاختراع، فيُجْعَلُ لَهُ مَفْعولٌ هو آيِلٌ إلى مَعْناهُ؛ فصارَ في مَعْنى المَفْعولِ المُطْلَقِ[2]، والتَّعبير به هنا مبالغةٌ في إظهار قُبْحِهم، وشنيعِ خِصالهم بتجاوزِهم وصْفَه ﷺ بالكذب إلى وصْفِه بالاختلاق من عند نفسه، وهو تمادٍ في الظُّلم، وسوءِ الخُلُق، وخَرْمٌ لمروءة الرِّجال، ونَقيّي الخِصال.

الافتراء اختلاق ما لا حقيقةَ له فهو أعمُّ من كلِّ ما يخالفُ الحقيقةَ

وَجْهُ العطف بـ﴿بَلْ﴾:

تَغْريةٌ عقولَ مُنكري النُّبوَّة

في العَطْف بـ﴿بَلْ﴾ إضرابُ انتقالٍ؛ لإبطالِ كلامِهم ونَقْضه، معناه: بل لستَ مُفتريًا، ولكنَّ أكثرَهم لا يَعْلَمون، ولو أنَّهم كانوا مِن ذوي العلم لَعَلِموا أنَّه إذا بُدِّلَتْ آيةٌ مكانَ آيةٍ؛ فإنَّما ذلك دليلٌ على صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ[3].

سرُّ وصْف الأكثريَّة بعدم العِلْم دون الإطلاق:

المُساواةُ في الكُفْر والجُحود

عُبِّر بـ (الأكثَر)؛ مُراعاةً لِما كان عندَ قليلٍ مِنهم مِن تَوقُّفٍ، وقِلَّةِ

(1) ابن عادل الدِّمشقيُّ، اللُّباب في علوم الكِتاب: 12/ 157.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 183.
(3) ابن عَرَفَة، تفسير ابن عرفة: 3/ 50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 183.

مُبالَغةٍ في التَّكذيبِ والظَّنِّ، أو لأنَّ بعضَهم يَعلَمُ، ويَكفُرُ عِنادًا؛ فيَكونُ هذا اللَّفظُ قَرَّر على قليلٍ مِنهم أنَّهم يَعلَمون، ويَكفُرون تَمرُّدًا وعِنادًا[1]؛ وعند ابن عَرفة أنَّ المرادَ: أقَلُّهم عالمون معانِدون، أو: أقَلُّهم شاكّون، فإن قيل: الشّاك غيرُ عالمٍ فكُلُّهم إذًا لا يعلمون، فيُجابُ: معنى الآيةِ: بلْ أكثرُهم مُصَمِّمون، وأمَّا الشّاكّون؛ فليسوا بمُصَمِّمين على الكذب، فيجوز في لَفْظ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إرادةُ التَّصميم على الكذب[2].

سِرُّ صَوْغِ الفعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا:

إصرارٌ على الكُفْر والعناد

صيـــغَ الفعلُ المنفـــيُّ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مضارعًا مجموعًا؛ للتَّشـــهير باستمرار غبائِهم، واستمرار عنادِهم وافترائِهم.

علَّة حَذْفِ متعلَّق الفعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

الحـذْف لِدَلالةِ السِّياق

ومفعول ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ محذوفٌ؛ لِدَلالةِ المعنى عليه، أيْ: لا يَعلَمون أنَّ الشَّرائعَ حِكَمٌ ومَصالِحُ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراء والكذب والبُهتان والاختِلاق والإفْك:

الافـتراءُ اختلاقُ الـكـذب بقلبِ الـــشَّيءِ عـن وجهِه

يدلُّ أصلُ مادَّة الافتراء (فَرَيَ) على القَطْع؛ قَطْع الجِلْد للخَرْز، والفَرْيُ: الإصلاحُ، والإفراءُ: الإفسادُ، كأنَّ الهمزةَ فيه للسَّلْب، وإذا أُزيل الإصلاحُ؛ صار فسادًا، والافتراءُ: افتعال مِن الفَرْي أو الإفراء، وهو أقبح الكذبِ، أو الكذبُ مع التَّعمُّدِ عند مَن يرى أنَّ الكذبَ مخالفةٌ في الواقع مُطلَقًا[4].

وفي العَلاقة بين البُهْتان والافتراء، قال الكَفَويُّ: البُهْتان: هو الكَذِب الَّذي يَبْهَت سامعُه، أي: يَدْهَش له، ويَتَحَيَّر، وهو أفْحَشُ من

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 518، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401، وابن عطية، المُحَرّر الوجيز: 3/ 420 - 421.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 50.

(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 5/ 518، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 401.

(4) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (فرِيَ).

الكذب؛ لأنَّه إذا كان عن قصدٍ يكون إفكًا، والإفْك: إذا كان على الآخر يكون افتراءً، والافتراءُ: إذا كان بحضرة المَقولِ فيه يكون بُهتانًا[1]، والإفْك: قَلْب الشَّيْء عن وجْهه، ومنه ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ [النجم: 53] المُنْقَلِبَة، الإفْك: الكَذِب؛ لأنَّه قَلْب المعنى عن جهة الصَّواب، وأفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا صَرَفْتُهُ عَنْه[2].

يشترِكُ الجميعُ في عَدَمِ مطابقةِ الخبَرِ للواقِعِ

الكَذِبُ: هو عدَمُ مطابقةِ الخَبَرِ للواقعِ، أو لاعتقادِ المُخبِرِ لهما، على خلافٍ في ذلك، ويكونُ في حَقِّ النَّفسِ، وحَقِّ الآخر، والافتِراءُ والبُهتانُ: يكونان في حَقِّ الآخر فقط.

والكَذِبُ: يُتسامح به في بعضِ الأحوالِ، ولا يُسمّى عندئذ كذبًا، وإنّما تورية أو احتيالا، كالكَذِبِ في الحَربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ، وعلى الزَّوجةِ، ولا يجوز الافتِراءُ والبُهتانُ في جميعِ الأحوالِ.

وقال الرّاغِبُ في الفَرْقِ بَيْنَ الكَذِبِ والافتِراءِ والمَينِ والبُهتانِ: "الكَذِبُ إمّا أن يكونَ اختراعًا لقِصَّةٍ لا أصلَ لها، أو زيادةً في القِصَّةِ أو نقصانًا يُغَيِّرانِ المعنى، أو تحريفًا بتغْييرِ عبارةٍ؛ فما كان اختراعًا؛ يُقالُ له: الافتِراءُ والاختلاقُ، وما كان من زيادةٍ أو نقصانٍ؛ فمَينٌ، وكُلُّ مَن أوْرَدَ كَذِبًا في غيرِه، فإمّا أن يقولَه بحَضرةِ المَقولِ فيه أو بغيرِ حضرتِه، وأعظَمُ الكَذِبِ ما كان اختراعًا بحَضرةِ المَقولِ فيه، وهو المعبَّرُ عنه بالبُهتانِ"[3].

وفي الفَرْقِ بَيْنَ الزّورِ والبُهتانِ: الزّورُ: هو الكَذِبُ الَّذي قد سوّيَ، وحُسِّنَ في الظّاهِرِ؛ ليُحسَبَ أنَّه صِدقٌ[4]، والبُهتانُ: هو مواجهةُ الإنسانِ بِما لم يحِبَّه، وقد بَهَته[5].

(1) الكَفَوِيُّ، الكُلِّيات، ص: 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفِك).
(3) الرّاغب، المفردات: (بهت، كذب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زور).
(5) ابن منظور، لِسان العرب: (بهت).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»